التاريخ: 28/12/2012

العنوان: قدَمُ الصدق .. الخصائص الأخلاقية لخدَمة الحسين (ع)

المصدر: *الكلانتري-شرح زيارة عاشوراء ص 200

قدَمُ الصدق

الخصائص الأخلاقية لخدَمة الحسين (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

خدمة العظماء طموح بشري يكاد يكون فطرياً ،ذلك أن في خدمتهم تتحقق سعادةٌ ما يحرص كل البشر على نيلها من هنا أو هناك ،و عن هذا الطريق أو ذاك.

و تتفاوت معايير العظمة لدى البشر نظراً لاختلاف رؤيتهم الكونية ،فالمادي منهم يرى العظمة شأناً مرتبطاً بامتلاك عناصر القدرة و النفوذ المادي ، بخلاف الإلهي حيث يرى أن العظمة مرادفة للكمالات الروحية و الفكرية و غير ذلك من الأمور التي تكون محل رضاً إلهي ،و أن تلك الكمالات هي مصدر القوة الحقيقية المطلقة على قاعدة (أن القوة لله جميعا).

من هنا أيضاً يتفاوت الغرض من خدمة العظماء بين خدمة الذات لمصلحة الذات ،و خدمة الذات لمصلحة الهدف ،فأصحاب الرؤية المادية للكون لا يمكنهم تجاوز مصالحهم الذاتية فيما يقدمونه من خدمة للعظماء ،لعدم وجود شيء وراء المادة حسب رؤيتهم،أما أصحاب الرؤية الإلهية فإن (الدنيا مزرعة الآخرة) في ثقافتهم ،ولا شيء يمكن أن يكون غاية في عالم الدنيا و لا جزاءاً يستحق العملَ من أجله.

و يجب -على هذا الأساس ،و وفق هذه القاعدة-أن يتحلّق أصحاب الرؤية الإلهية حول الحسين عليه السلام ،كعظيم من عظماء الإسلام ،ليشكلوا طوق ولاء يتنافسون من خلاله في خدمته و وضعِ كل الإمكانات و الطاقات و المواهب تحت تصرف أهداف رسالته الإلهية الخالدة ، لكن هذا النوع السليم من الخدمة الحسينية لا يتحقق إلا بتحقق شروط و ضوابط أخلاقية و تربوية تضمن الصدق و الإخلاص في خدمة الحسين عليه السلام.

و قد وردت عبارة (قدم صدق) خلال زيارة عاشوراء في موضعين ،الأول: (فَاَسْاَلُ اللهَ الَّذي أكْرَمَني بِمَعْرِفَتِكُمْ وَمَعْرِفَةِ اَوْلِيائِكُمْ وَرَزَقَنِى الْبَراءَةَ مِنْ اَعْدائِكُمْ اَنْ يَجْعَلَني مَعَكُمْ فِي الدُّنْيا وَالاْخِرَةِ وَاَنْ يُثَبِّتَ لي عِنْدَكُمْ قَدَمَ صِدْقٍ فِي الدُّنْيا وَالاْخِرَةِ) ،و الثاني: (اَللّهُمَّ ارْزُقْني شَفاعَةَ الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْوُرُودِ وَثَبِّتْ لي قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَكَ مَعَ الْحُسَيْنِ وَاَصْحابِ الْحُسَيْنِ اَلَّذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ دُونَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ) ،و ما هذا التكرار إلا لما تحمله هذه القضية من أهمية كبرى في خدمة الحسين عليه السلام الأمر الذي يستدعي الوقوف عند المراد من (قدم الصدق).

جاءت كلمة القدم في اللغة بعدة معاني:

1. الرِّجل.
2. السبق و الفضل.
3. العمل الذي يحصل فيه التقدم عن طريق القدم و العمل ،نظير إطلاق اليد على النعمة.
4. ما يُقدَّم من خير.
5. الثواب.
6. المقام ،و هو هنا الولاية و الشفاعة.
7. الثبات على الطريق ،بمعنى نقاء المحبة و العقيدة و القرب الدائم في الدارين.*

و لعل هذه المعاني ،إذا تجاوزنا منها المعنى الأول الذي هو المعنى العضوي لكلمة القدم ، مقصودة في نص الزيارة على نحو الجمع ،فكل معنى منها يجب توفره في خدمة الحسين عليه السلام ،و هذه المعاني بمجموعها تشكل الأهداف و الغايات التي تتناسب قيمياً و أخلاقياً مع طبيعة العمل الإنساني القائم على أساس رؤية إلهية للكون.

و إضافة الرِّجل للصدق ،بعد وضوح المراد من الصدق بما لا يحتاج إلى مزيد بيان ، يعني أن تكون الأهداف و الغايات في خدمة الحسين عليه السلام مقصودة بالذات و على وجه الحقيقة ، بحيث لا يقف وراءها أي دافع

هابط عن مستوى القيم و الأخلاق الرفيعة، و لا يشوبها أي غرض و قصد يتنافى مع مبدأ الإخلاص ،و إلا اعتبر ذلك كذباً مُبطلاً للعمل و علة تامة لجعله (هباءاً منثورا).

و يمكننا من خلال هذه المعاني لعبارة (قدم صدق) أن ننتزع تلك القيم و الأخلاق التي يجب أن ينطلق و يلتزم بها خدَمة الحسين عليه السلام خلال مسيرتهم مع هذا العظيم الإلهي الخالد كالتالي:

1. المسارعة في الإمتثال.

فإن فضل السبق و المسارعة في خدمة الإسلام من خلال خدمة أهداف الحسين عليه السلام بمعنى عدم تأخير إنجاز مصالح الدين من أجل مصالح الذات ،هو مما يقتضي القرب و الحظوة عند الله تعالى و الكرامة عند أوليائه ، فقد قال سبحانه: (والسابقون السابقون أولئك المقربون).

و إن من مقتضيات المسارعة في الإمتثال أن يسبق خدمةُ الحسين عليه السلام الآخرين في العمل على تحقيق أهداف نهضته ابتداءاً بالذات و انتهاءاً بالمجتمع.

2. المباشرة في الخدمة.

و لها ثلاث معاني ،الأول:أن يقوم بخدمة الحسين عليه السلام دون وسائط تنفيذية فيكون هو صاحب الفعل و العمل ،سواءاً على نحو الإبتكار في أساليب الخدمة ،أو الإنجاز لما هو مطلوب منه فيها ، و الثاني:أن يمارس الشعائر ولا يكتفي بالدعوة لممارستها ما أمكن ،و الثالث:أن يحاول امتلاك مقومات الخدمة و عناصرها بحيث لا يتوقف في إنجازها على عناصر خارج الذات.

3. تقديم ما هو خير.

و ذلك بأن يتجنب أي عمل في خدمة الحسين عليه السلام لا يرجع بالأثر الإيجابي على ثورته و أهدافه و رسالته و شيعته ،سيما ما يوجب الشقاق و يؤدي إلى الفرقة و النزاع.

4. التعامل العبادي.

إن خدمة الحسين عليه السلام من العبادات العظيمة ،وكل عبادة لا يتم قبولها إلا بتوفر قصد القربة وجوداً و استمراراً ،فقد تنطلق الخدمة الحسينية بقصد القربة إلا أنها تنتهي بأغراض و قصود تتنافي مع القربة و طلب الرضا الإلهي فتُحبَط حينئذ و تذهب ريحها .و أشد ما يحبط الخدمة الحسينية هو طلب الرصيد الدنيوي ،مادة أو وجاهة و شهرة ، علماً بأن الدنيا هي التي تقبل على خدمة الحسين عليه السلام و عليهم أن يصدوا منها يضر بدينهم لا أن يسلموا أنفسهم لها.

5. تحقيق الولاية و نيل الشفاعة.

لعل من أهم الخصائص الأخلاقية في خدَمة الحسين عليه السلام الحرص على تحقيق مقام الولاية لأهل البيت عليهم السلام و الحصول على شفاعتهم ،و هذا الأمر و إن كان من الواجبات العقدية إلا أن له بعداً أخلاقياً مهماً بالنظر لآثاره النفسية ،فإن حالة العشق في خدمة الحسين لا يمكن أن تظهر إلا على أولئك الذين يقدمون كل شيء في الحسين عليه السلام على أساس المحبة و الهيام الولائي ،ولا يتطلعون إلا إلى نيل شفاعته و الحظوة عنده بعد رضا الله سبحانه.

و الحمد لله رب العالمين.